فرح أنطون

نصوص مختارة

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

القرن العشرون وماذا عمل القرن التاسع عشر؟

يصدر هذا الجزء من الجامعة يوم انتهاء القرن التاسع عشر ودخول القرن العشرين. فوداعًا أيّها القرن الراحل وسلامًا أيّها القرن القادم. لقد نزل الأوّل في مهاوي التاريخ، وطلعَتْ غُرَّة الثاني طلوع مولود جديد على الوجود. فمباركٌ هذا المولود.

وقد جرت عادة قدماء المصريّين أنّهم، عند موت ملوكهم، يجتمعون فيتبادلون آراءهم في الساحات العموميّة بشأن الملك الراحل عنهم منتقدين حكمه وأعماله، ذامّين منها ما يُوجب الذمّ، ومثنين على ما يُوجِب الثناء. والقرن التاسع عشر هو الآن منّا بمثابة ميت، فليس يخلو من فائدة أن ننظر في أعماله وما تمّ في عهده من خير وشرّ.

ولسنا نصرف الفكر إلى الأمور المادّيّة فقط، فنجعل الكلام مقصورًا على تاريخ الاختراعات العظيمة التي اختُرعت في هذا القرن، والاكتشافات العجيبة التي اكتُشفت. كلّا فإنّ هذه الأمور المادّيّة ليست إلّا ثمرة حياة هذا القرن الأدبيّة. لذلك ننظر في أعماق هذه الحياة الأدبيّة ليكون كلامنا شاملًا جميع أنفاس القرن التاسع عشر. وتوصُّلًا لذلك نقسم الكلام إلى ثلاثة أقسام: كلام على عالَم السياسة. كلام على عالَم العلم. كلام على عالَم الأدب. فنقول:

أعمال القرن التاسع عشر السياسيّة

وُلد هذا القرن على لهيب الثورة الفرنسويّة ومدافع نابوليون يدوّي صداها في الجهات الأربع. ومن غريب الاتّفاق أن ننشر في آخر يوم من القرن التاسع عشر تفاصيل أهمّ حادث سياسيّ حدث في بدايته وهو فتح الشعب للباستيل كما ترى في قسم الرواية. وقد كان من تأثير هذه الثورة أنّها وضعتْ أساس الحرّيّة في العالم على أسس ثابتة لا تتزعزع، وفتحتْ عيون الأمم في الشرق والغرب، فكأنّ تلك الشعلة التي أحرقت فرنسا حينًا من الزمان قد أنارت الدنيا بأسرها.

فخفَّت وطأة الاستعباد، وخاف الملوك سوءَ المنقلَب، فأصبحوا يعتبرون الرعيّة أبناء لهم لا خدّامًا وعبيدًا يسومونهم ما تُسام الأنعام من الذلّ والحيف. وسقطت الحواجز العظيمة التي كانت بين الطبقات، فأصبح الشريف شريفًا بأدبه لا بنَسَبِهَ، وتساوى الناس لدى القانون، ومُذ تساووا عرفوا أنّهم إخوان بعضهم لبعض لا خصوم وأعداء.

ثمّ اتّسعت حلقة هذا الإخاء بحكم الناموس الطبيعيّ، وبواسطة مبدإ الحرّيّة والمساواة الذي تقرَّر في العالم. فقال الشارعون إذا كان من حقوق الفرد أن يكون حرًّا مساويًا لغيره في الحقوق والواجبات، وجب أن يكون الشعب كذلك. فنشأ من هذا القياس الصحيح حقّ

كلّ أمة في الاستقلال والمساواة. فأُسقِطَ عن أعناق الأمم نير العبوديّة السياسيّة، كما أُسقِط عن أعناق الأفراد نير العبوديّة الاجتماعيّة. فكان ذلك منشأ ثورات شديدة زُعزعت لها أسس الأرض، وانكسرت فيها قيود أمم كثيرة، فأصبحت حرّة مستقلّة تحت قبّة السماء.

ولا ريب أنّ عمل القرن التاسع عشر، من هذا القبيل، ناقص نقصًا عظيمًا. ولكنّ هذا القرن عمل كلّ ما كان يستطيع عمله. وإذا لم يكن له من فضل غير المناداة بالحرّيّة والمساواة للأفراد والشعوب لكفاه ذلك فضلًا على القرون الخالية. ولكنّه لم ينادِ بذلك فقط، بل أعطى الأفراد والشعوب قوّة توصلهم إلى أغراضهم إذا راعوا النواميس الطبيعيّة، واتّبعوها بلا إفراط ولا تفريط.

أعمال القرن التاسع عشر العلميّة

وقد كان لأعماله السياسيّة تأثير عظيم على أعماله العلميّة. ولا نقول إنّ العلم كان غير موجود قبله، فإنّ أهم أسس العلوم الطبيعيّة لم تُوضَع في القرن التاسع عشر، بل قبله. ولكن امتاز القرن التاسع عشر بكونه أَطلقَ العقول من القيود، وهدمَ الحواجز القويّة التي كانت تحول دون نموّها وتقدّمها. فقد روى الفيلسوف جول سيمون أنّ التعليم في فرنسا كان، في القرن الثامن عشر وما قبله، محصورًا في طبقة الأشراف والوسط، في حين أنّ جمهور الشعب كان في ظلامٍ من الجهل والغباوة. وقال هذا الفيلسوف مستشهدًا على فضل هذا القرن: "إنّي الآن أشغل مقامًا من أسمى مقامات بلادي (عضويّة مجلس الشيوخ)، ولكنّي لولا الثورة الفرنسويّة التي أَطلقَتْ قيدَ العقول لكنتُ الآن إمّا صاحب صناعة يدويّة في قريتي، أو عضوًا في إحدى الجمعيّات الإكليريكيّة".

ومن نتائج هذا الإطلاق، الذي أشار إليه الفيلسوف، عنايةُ الحكومات بأبناء عامّة الشعب كما تعنى بأبناء خاصّته. وهذا منشأ التعليم الإلزاميّ المجانيّ الذي اتّبعته الأمم الغربيّة مع أنّه لم يَقُمْ أحدٌ، بعدُ، إلى الدعوة إليه في البلاد الشرقيّة.

وقد وَضَعْنا التعليم الإلزاميّ في مقدّمة أعمال هذا القرن العلميّة لأنه في نظرنا أهمّها كلّها. نعم، لا ينكر أحد تقدّم العلوم الطبيعيّة إلى حدّ غريب. فقد قاسَت هذه العلوم مساحة الفضاء. وعرفت مادّة الكواكب. واخترعت المركبات التجاريّة في البرّ والبحر. وأَوجَدَت التلغراف فقصَّرت به وبالسفن، المذكورة آنفًا، شاسع المسافات، واختصرت الأبعاد، ومزجت العالم بعضه ببعض مزجًا مفيدًا. لقد اكتُشِفَت المكروبات فدفعت عالم الجراحة والطبّ إلى الأمام دفعًا شديدًا. لقد أتت من الاكتشافات والاختراعات ما لو قام أجدادنا اليوم من قبورهم ورأوه لحسبوا أنفسهم انتقلوا إلى عالم ألف ليلة وليلة، أو ظنّوا ما يرونه سحرًا مبينًا. كلّ ذلك نعرفه ونعجب به. ولكن يعجبنا أكثر منه كلّه ذلك المبدأ السامي الذي أجمعت عليه في هذا القرن أكثر الأمم الغربيّة وهو من مخترعات القرن التاسع عشر. ونريد به: التعليم المجانيّ الإلزاميّ لخاصّة الأمّة وعامّتها.

فبارك الله فيكَ أيّها القرن الراحل على هذا العمل العظيم الذي عملته، وذلك المبدإ السامي الذي أقررته. فإنّه إذا لم يكن لك في عالم العلم إلّا هذا الفضل لكفى أن يُعلي بين القرون شأنَك، ويُخَلِّدَ اسمك.

أعمال القرن التاسع عشر الأدبيّة

وأهمّ أعمال القرن التاسع عشر الأدبيّة عَتْقُ الرقيق. فقد كان الإنسان الظالم يشتري، في القديم، ويبيع أخاه في الإنسانيّة، والحكومات ساكتة، والفلاسفة وعلماء الآداب لا يحرّمون هذه التجارة المنكرة. فإنّ أريسطو وأفلاطون شهدا في زمانهما عذاب الرقيق ولم تتحرّك أحشاؤهما حنوًّا عليه، بل إنّ أريسطو نفسه كان له عبيد وأرقّاء. ولبث العالَم في هذه الخشونة والهمجيّة حتّى جاء القرن التاسع عشر، فحرَّم أن يتاجر الإنسان بأخيه الإنسان. وهي إحدى بركات هذا القرن وخيراته.

ومن هذه البركات أيضًا ارتقاء الأدب السياسيّ. فإنّه قد مضى الزمان الذي كانت فيه المدن والمقاطعات تُباع وتُشرى بين الحكومات كأنّها أنعام سائمة. وانقضى أيضًا ذلك الجنون السياسيّ الذي كان في العصور الخالية وهو جنون الفتوح وحبّ الاستيلاء، فقلّت الحروب، وارتقت أسبابها، وأصبح كلُّ من المتحاربين يدّعي أنّه مضطرّ إليها، ومُدافِع لا مهاجِم فيها، ممّا يدّل على ارتقاء أدب الحكومات. وممّا يدلّ على ذلك أيضًا تصريح الحكومات نفسها بحبّ السلامة، وحسن النيّة، في مجالس الأمّة التي انعقدت في أيّام القرن التاسع عشر الأخيرة. فإنّ حكومات فرنسا وألمانيا وإيطاليا تبادَلْنَ في هذه المجالس، منذ نحو شهر، على ألسنة المسيو ديلكاسه، والمسيو دي بيلوف، والمركيز دي فوستا، ألطف عبارات المجاملة. فظاهرٌ من ذلك أنّه قد مضى في السياسة دور الهجوم والافتخار بالحرب، وجاء دور الدفاع والافتخار بالسلام.

وماذا نقول عن ذلك النور السماويّ الذي خفق هنيهة في العالم على يد القيصر العظيم نقولا الثاني إمبراطور روسيا. لا ريب أنّ اقتراح القيصر عَقْدَ مؤتمر السلام في لاهاي قد كان بمثابة تتويج أدبيّ لهذا القرن. وإذا كان هذا المؤتمر لم يأتِ بثمرة عاجلة، فإنّه سيأتي بثمرة آجلة. وسيبقى هذا الاجتماع الذي عقدَتْه الأمم في لاهاي، وتصافحتْ فيه عناصر الإنسانيّة كلّها، تحت أنظار ويلهلمين الفتاة ملكة هولاندا — سيبقى هذا الاحتفال أكبر عمل أدبيّ عملته الإنسانيّة في القرن التاسع عشر، وفي القرون الماضية.

ومن أعمال هذا القرن أيضًا صرف الحكومات شيئًا من عنايتها إلى الضعفاء والتعساء، أي التحريم على الإنسان قتل الإنسان. وكذلك تخفيف مصائب المجرمين باعتبارهم مرضى في عقولهم يجب مداواتهم بتحسين أحوالهم وتعويدهم، وهم في السجون، العمل السهل المفيد لأبدانهم وعقولهم. وتخفيف ويلات الحروب وفظائعها بقوانين دوليّة مرعيّة، وإنشاء المستشفيات العموميّة، والملاجىء الخيّرية للشيوخ والأولاد، وتأليف لجان وجمعيّات لتربية الأيتام واللقطاء الذين لا ذنب لهم غير ولادتهم.

ولا نعلم في أيّ قسم نضع تلك الحركة الاقتصاديّة الغريبة التي امتاز بها الربع الأخير من القرن التاسع عشر. أَفي جملة الأعمال السياسيّة أم العلميّة أم الأدبيّة. ولكن نرجّح وضعها في قسم رابع نفرده لها، ونسميّه "أعمال القرن التاسع عشر الاجتماعيّة".

فإنّ الحركة الكبرى التي غلبت على جميع الحركات، في نهاية هذا القرن، هي الحركة الاقتصاديّة التي سبّبتها الحركة الاجتماعيّة، وجهاد الشعوب في هذه الحياة، وتنازعها البقاء، وتباريها في حلبة التجارة والصناعة والزراعة. حتّى إنّ الدول أصبحت ولا همَّ لها إلّا المسائل

الاقتصاديّة. وإذا خيف من شبوب نار حرب بينها فإنّما يكون سببها المسائل الاقتصاديّة، لأنّ دور تنازع السلطة بينهنّ قد مضى، وجاء دور التنازع على الأمور الاستعماريّة التي بها تتعلّق المسائل الاقتصاديّة والتجاريّة.
ومن أعمال القرن التاسع عشر الاجتماعيّة استفحال أمر الاشتراكيّين استفحالًا نفع المبادىء الديموقراطيّة، وأفاد ضعفاء الأمم إفادة تُذكَر لهم بالشكر من هذا الوجه. وتفصيل ذلك يطول إيراده، فنكتفي بهذا البيان الوجيز.

هذا أهمّ ما رأينا بَسْطَهُ عن أعمال القرن التاسع عشر. وكلّه حسن نافع مفيد، يستحقّ عليه القرن ثناء أبنائه، وثناء الأجيال الآتية.
ولكن بإزاء هذه الجوانب اللامعة البرّاقة التي أظهرناها للقرّاء، ألَا يوجَد جوانب أخرى سوداء مظلمة؟ ألَا يوجد للقرن التاسع عشر سيّئات بإزاء هذه الحسنات؟

لقد أقدم هذا القرن على حلّ مسائل لا قِبَلَ له على حلّها كلّها دفعة واحدة. فقد أطلع شمس الحقّ على الناس، فانفتحت لأشعّتها الباهرة عيون الكبير والصغير، فكانت للكبير بمثابة النور من الخفّاش، وكانت للصغير بمثابة النار من الفراش. وهكذا، بالرغم من إشراق هذه الشمس، بقَي الكبير مُعربِدًا شامخ الأنف، والصغير مَدُوسًا مسحوقًا. أليس هذا الذي تقوله الآن مَدافع الإنكليز والبوير في أفريقيا الجنوبيّة؟

لقد ارتقت في هذا القرن الآداب السياسيّة، ولكن انحطّت الآداب الشخصيّة. فإن الشرّ ينمو بنموّ التمدّن، والرذائل على أنواعها تتكاثر بتكاثر الثروة، وتزداد بازدياد أسباب المدنيّة. فالكذب والرياء والخداع والإضرار بالناس والاحتيال لسلبهم وغشّهم —كلّ ذلك أصبح في القرن التاسع عشر أمرًا شائعًا مقبولًا، وربّما لُقِّب صاحبه بالمهارة والدهاء وحسن السياسة. الفجور –وفظيعتاه– قد أصبح مُباحًا، ويكاد يكون شرعيًّا. المسكرات تقتل في بعض البلاد ٧٥ في المائة من سكّانها. الجرائم والجنايات تملأ السجون بالأشقياء. المبادئ الدينيّة تضعف وتنحلّ شيئًا فشيئًا. الفضيلة تخفض جناحَيها بإزاء الرذيلة. الشعوب لا تزال تتخبّط في ظلام الجهل، وليس لها خبز تغذو به أبدانها، وتعليم تغذو به عقولها. الحياة أصبحت فوضى لأنّ هذا القرن أعطى الإنسانيّة قوّة الدفع، ولم يُعطِها قوّة الجذب. أعطاها الحرّيّة ولم يُعْطِها الإخاء والمحبّة. فتنافرت القلوب، واختلفت الأهواء، وقام الناس بعضهم على بعض باسم الحرّيّة والدين، والحرّيّة الحقيقيّة والدين الصحيح براءٌ منهم وممّا يَفْتَرون. وفي وسط هذه الحياة الزوبعيّة الهائلة التي نشأت في هذا القرن، انقلب ميزان الإنسانيّة، وفقدت الهيئة الاجتماعيّة قيادة قوّادها لأنّ كلّ فرد منها أصبح قائدًا مستقلًّا بنفسه. أصبحوا كالبصل، كلّهم رؤوس، كما قال الفيلسوف جول سيمون. فتأمّل هذه الحياة الجديدة، وسرعة انقلابها، وشدّة خطرها، بإزاء الحياة القديمة الهادئة، وبساطة المعيشة فيها، وقناعة أهلها وتسليمهم ورضاهم بأحوالهم.

ولكنّ القرن التاسع عشر لا يستحقّ اللوم الشديد إذا كان لم يَحلّ جميع المسائل التي أقدم عليها، فأنهّ لكثرة هذه المسائل ناءَ بها ورزح تحتها بعد أن حلَّ ما حلّه منها. فأملُنا الآن موضوع فيك يا أيهّا القرن العشرون. كُنْ للإنسانيّة خيرًا من أخيك القرن التاسع عشر. لا تسمح أن يحدث فيك ما حدث في أخيك من السيّئات، وكمّل كلّ تلك الحسنات. إسحق بفأس العقل والأدب والدين جراثيم الشرّ والفساد والرذيلة التي ظهرت في القرن الماضي، أخيك، ومهّد للإنسانيّة طريق السعادة التي تنشدها، فإنّها قد تعبت في طلبها دون أن

تدركها. حتّى إذا أكملْتَ وأتممْتَ أَجَلَكَ، وقف أبناؤنا في ختام أيّامك الآتية، وقالوا مؤرّخين أعمالك: مبارك القرن التاسع عشر على ما عمل. ومبارك القرن العشرون على ما أكمل.

فَسِر بأمانٍ وسلامٍ يا أيّها القرن العشرون.

فرح أنطون،

"القرن العشرون وماذا عمل القرن التاسع عشر؟" في مجلّة الجامعة، السنة الأولى، القسم الثاني، ١٨٩٩– ١٩٠٠، الجزء العشرون، الإسكندريّة، اكانون الثاني ١٩٠٠، ص ٤٥٧– ٤٦٢.

###

الكاتب الشرقيّ وَحَاجَاته الجَديدَة

لكّل عصر حاجات. ولو كان العصرُ اليوم كعصر الهمذاني والزمخشري وابن المقفّع والمتنبّي، لَمَا كان لأحد أن يذكر للكتّاب حاجات جديدة. فإنّ الهمذاني كان يزور خراسان مثلًا، فينشد بضعة أبيات، ويكتب بضع رسائل، فيعود ممتلىء الأردان. والمتنبّي كان يقول قصيدة واحدة، فيُعطى من أجلها ألوف الدنانير. ومتى كانت سوق الأدب رائجة إلى هذا الحدّ، فذلك دليل على وجود الاتّفاق التامّ في أذواق القائلين والسامعين.

ولو أنّ العصر بقيَ كما كان في أيّام مَن أشرنا إليهم لَجَازَ أن يُقال لأدباء اليوم: تحدّوا سابقيكم واقتدوا بمتقدّميكم. وحيئذ كان هذا الاقتداء أمرًا معقولًا مقبولًا. ولكنّ العصر قد تغيّر من حسن الحظّ. ولم يَعُدِ المقصود من الأدب، وصناعته، مدح الملوك والأمراء أو العظماء، بل صار يُقصَدَ به أمر أسمى من هذا كثيرًا: ونريد بذلك تكوينَ الأمم، وتكبير نفوسها، وإنهاض ضعفائها، وترقية شؤونها.

كان المتنبّي لا ينظم شعره إلّا لممدوحه، وطبقة الشعراء والمتأدبيّن. وكان يظنّ أنّ هؤلاء الشعراء والمتأدّبين هم الدنيا كلّها بدليل قوله:

إذا قلْت شعرًا أصبح الدهر منشدًا

مع أنّ هؤلاء الشعراء والمتأدّبين كانوا جزءًا صغيرًا من الأمّة. أمّا اليوم فالكاتب العصريّ عليه أن يكتب لمجموع الأمّة، كبارًا وصغارًا، أغنياء وفقراء، رجالًا ونساءً، تجّارًا وصُنَّاعًا وزُرَّاعًا وأدباء. أي أنّ الأدب والعلم أفلتا من قيدهم القديم الذي كان يحصرهما في طبقة واحدة لغرض التسلية والطرب، واندفعا نحو جميع الطبقات لأغراض عموميّة يُقْصَد بها فوائد أدبيّة وعلميّة. فنتج عن ذلك أنّ رواج الأدب لم يعد متوقّفًا على طربِ أميرٍ كسيف الدولة، ولا على وجود الملوك والخلفاء. بل على تأثير أقوال الكاتب في الجمهور الذي صار السيّد الحقيقيّ على الأدب والأدباء. فوظيفة الكاتب إذًا أن يُحْسِن التأثير في نفوس هذا الجمهور.

وإنْ قيل إنّ الملوك والأمراء قد يؤثّرون أعظم تأثير في ترويج الأدب لمساعدتهم أهله، فنجيب أنّ هذا القول صحيح متى كانوا يقصدون بمساعدتهم لهم مجرّد إنماء مواهبهم لتنتفع الأمّة بها. ولكنْ إذا كانوا يقصدون بذلك تقييد تلك المواهب لتنشر نور مجدها عليهم وعلى أعمالهم بالمدح والثناء، فإنّ الحال تتغيّر تغيّرًا عظيمًا خصوصًا متى كانت مصلحة الملك مخالِفة لمصلحة الأمّة. ذلك أنّ صاحب تلك المواهب لم يُعْطَ مواهب من الله ليجعلها وقفًا لفرد واحد، ولو كان مَلِكًا، بل أُعْطِيَها ليخدم بها جميع بني جنسه. فإذا خطر له وقفها على واحد، أو جماعة، أو طائفة، أو مذهب دون غيره، فإنّه بذلك ينقض العهد الذي أعطاه على نفسه وهو في بطن أمّه حين أخذ تلك المواهب عن طريق الطبيعة من يد العناية الإلهيّة. وحينئذ يقع بين ناريَن: إمّا دَوْسُ مصلحة الأمّة من أجل مصلحة مَلِكها، وإمّا تَرْكُ الملك وقيوده الذهبيّة مختارًا عليها معيشة الفقر والحرّيّة مع الأمّة. ولا ريب في أنّ هؤلاء الكُتّاب والشعراء المتقدّمين الذين كانوا يتزاحمون على أبواب الخلفاء والأمراء، ويتنافسون في إطراء ممدوحيهم، ووضعهم أحيانًا في مرتبة الآلهة ليستدرّوا منهم ألوف الدراهم والدنانير — تلك الأموال التي كانت مأخوذة من دماء الشعوب والأمم بطرق مختلفة– لو علموا أنهمّ وُجدوا المساعدة الشعوب والأمم لا لمساعدة ملوكها على ابتزاز أموالها، ومشاركتهم بعد ذلك فيها بطرق تشبه طرق الشحاذة، لعلموا أنهمّ أضاعوا مواهبهم في غير وجوهها، ولم يأكلوا مالًا حلالًا.

ومتى ثبت أنّ أوّل أغراض الأدب والعلم ترقية الأمم، وإنهاض الشعوب، تَرَتَّبَ علينا أن نعلم حاجات الكاتب الشرقيّ الجديدة في هذا العصر.

الحاجة الأولى: وعندنا أنّ أُولى حاجات الكاتب "الجرأة والحرّيّة". ونريد بذلك حرّيّة الفكر والنشر. وتحت الحرّيّة تدخل فضائل كثيرة. فإنّه متى كان الكاتب يكتب بحرّيّةٍ واستقلالِ فكرٍ فإنّه يكون صادقًا منصفًا عادلًا قليل الشذوذ والشرود. ويشترط في ذلك أن تكون الحرّيّة مطلقة في أقواله، لا أن يتكلّم بحرّيّة في هذا الموضوع لأنّ الحرّيّةَ فيه موافقةٌ لمصلحته، ويُداهِن ويُصانِع في ذلك لأنّ الحرّيّةَ فيه مخالفةٌ لمصلحته. وكلّ إنسان يعذر الكاتب الذي يعيش في بلادٍ أقلامها مقيّدة إذا لم يتجاوز في كتابته حدّ المداراة القانونيّة، ولكن ما عذر الكاتب الذي يعيش في بلاد أقلامها مطلقة. لا عذر له غير "المصلحة"، فمصلحته هي التي تمنعه من أن يقول الحقّ الذي يفكّر به، وتجبره على مدح ما يستحق الذمّ، وذمّ ما يستحقّ المدح. وحينئذ يخرج عن دائرة الوظيفة الحقيقيّة التي تُوْجَد لها الصحافة، وتُثَقَّفُ لها الاقلام. ولسنا نَنكِرُ أنّ هذه الحالة شائعة في كلّ العالم لأنّها حالة عموميّة، إذ كلّ إنسان يطلب تأييد مصلحته قبل كلّ شيء. لذلك كانت أكثر صحافة أوروبّا نفسها مبنيّة على المصلحة. قال أحد كتّابهم في الشهر الماضي: "إنّ جرائدنا صارت عبارة عن وباء حقيقيّ. فإنّ المدح والذّم يُكالان فيها بلا عدل. وقد قتلوا الانتقاد الصحيح المبنيّ على الصدق وحرّيّة الفكر، ووضعوا في مكانه أوراقًا يرسلها المؤلّفون وأصحاب الكتب. فإذا قرأت انتقاد كتاب فاعلم أنّ أكثره مكتوب بقلم المؤلّف نفسه، أو بقلم صديق له". نقول : ولكن إذا كان في الغرب جرائد هذه حالها، ففيه أيضًا جرائد كـ"التيمس" [Times] و"الطان" [Temps] و "برلنر تاجبلاط" [Berner Tagblatt] لا يمكن أن يلحقها شيء من هذا الغبار. فنحن نرجو أن تقوى في الشرق صحافة جديدة مستقلّة كهذه الصحافة لتخرج من الدائرة التجاريّة المحضة إلى الدائرة الصحافيّة الحقيقيّة. ويلوح لنا أنّ ذلك لا بدّ منه، وإلاّ بَطُلَ كلّ تأثير لها على القرّاء، لأنّ الأقوال لا تؤثّر إلّا متى كانت خارجة من القلب والضمير.

الحاجة الثانية: وربَّ قائلٍ يقول: ماذا يحلّ بالأفكار في الشرق إذا كان كلّ كاتب فيه يبسط آراءه بكلّ حرّيّة دون مراعاة مع ما هو معروف من تعدّد العناصر. فنجيب: لا يحلُّ بالأفكار سوء، لأنّ "التساهل" كالماء يُخْمِد كلّ حدَّة، وكلّ نزق. فالحاجة الثانية

"التساهل"– وليس المُراد بالتَساهل أن يكون ما يكتبه الكاتب موافقًا لكّل الآراء، وكلّ العناصر، وكلّ المذاهب. كلاّ. فإنّ هذا التساهل يُفني قوى الكاتب، ويذهب بتعبه أدراج الرياح، ويشوّه الحقائق أقبح تشويه. ولقد سمعنا مرّة بعضهم يقول: إنّ موقف الكاتب الشرقيّ صعب جدًّا في هذا العصر. لأنّه يكتب للمصريّ والشاميّ والجزائريّ والتونسيّ والهنديّ والفارسيّ والأفغانيّ والقوقازيّ إلخ إلخ. ولذاك يجب عليه أن لا يكتب إلاّ ما يُرضي الجميع. فضحكنا عند سماعنا هذا الكلام، وقلنا إنّ وظيفة الكاتب أسمى من ذلك بكثير. أجل، ليست وظيفةُ الكاتبِ بترَ الحقيقة هنا، وتمويه الكلام هناك، إرضاءً لهذا أو ذلك، بل وظيفته أن يقول الحقّ، وينطق بالصدق في أيّ جانب كان. لكن يُشترط عليه في ذلك شرطًا لا بدّ منه. وهو أن يترك دائمًا للقارىء الحكم في المسائل التي يبسطها. لأنّ القارىء قلّما يحبّ أن تضغط عليه لتُقنِعَه. وإذا كنتَ تطلب منه التساهل فيجب عليك أن تعلمّه ذلك بالقدوة، أي أن تكون متساهلًا في آرائك. لأنّ القدوة خير المعلّمين. إذن لا تضع آراءك وأقوالك في منزلة الحقّ الأبديّ الذي لا يجوز لأحد مسُّه، فإنّ لكّل إنسان نظرًا ومذهبًا في الأمور. ومتى احتكّت هذه المذاهب والآراء، بعضها ببعض، فلا يبقى منها مع الوقت إلّا أفضلها. وهذه هي الطريقة الوحيدة لنشر الحقائق والمبادىء نشرًا فعليًّا بين الناس، وترقية العقول عن الأشياء المألوفة الراسخة في النفوس بحُكمِ العادة. وكُنْ على ثقة من أنّ كلّ العناصر التي ذكرتها تقرأ أقوالك ولا تستاء منها إذا راعيْتَ هذا الشرط، ولو وَجَدَتْ فيها ما يسوء لأنّها تعلم أنّك لا تقصد بها سوءًا، ولا سيطرة على عقولها في ما تكتب، وإنّما تقصد بسط الآراء والمبادىء بعضها بجانب بعض طلبًا للحقيقة في أيّ جانب كانت.

الحاجة الثالثة: والحاجة الثالثة أن يحبّ الكاتب صناعته، ويُولَع بها، ويطلبها لذاتها. ولا بدّ هنا من اعتراضٍ قويّ وهو أنّ جميع الكتاّب في كلّ البلدان يحبّون صناعتهم، وكثير منهم لا يجنون منها فائدة كبيرة، ومع ذلك تراهم متعلّقين بها. فالجواب أنّ هنا إشكالًا تجب إزالته. إذ شتّان بين من يُولَع بشيء لأنّه عمله الذي خُلق له، وبين من يريد أن يجعله عمله قسرًا ويُرغِمَ طبيعته به ميلًا إلى جماله وجلاله. وهذا الخطر موجود في كلّ مكان، لا في الشرق فقط. وقد وضع المسيو بونيه الفرنسويّ، منذ بضعة أشهر، كتابًا سمّاه "خطر صناعة القلم" أو "ثلاثة من عائلة لكران" أثبت فيه أنّ ألوفًا من الأدباء يتهافتون، في كلّ عام، على صناعة القلم في فرنسا، وتسوء حالهم لأنّهم قهروا طبيعتهم قهرًا على عملٍ لم يكونوا من رجاله، وإنّما جُذبوا إليه بجاذب جماله.

وإنّما أردنا "بحبّ الكاتب صناعته وطلبها لذاتها" مقاومة داءين شديدَي الفتك. الداء الأوّل يأسُ كثيرين من الكتّاب من صناعة الأدب في الشرق. ولذلك يولولون عليها ويقيمون المآتم حزنًا لموتها، وهذا الأمر يسبّب ضررَين: الأوّل الحطّ من كرامة الأدب لدى قرّائه، والثاني إزالة الثقة من نفوس أولئك الكتّاب. ومتى زالت من نفس الكاتب ثقته في نفسه، وفي صناعته، فقد قضى على نفسه، وعلى صناعته، وعلى قرّائه، ولم يَعُدْ يَقْدِرُ أن يصنع شيئًا مفيدًا. فالأجدر به، في هذه الحالة، أن يترك القلم بسكون وهدوء، ويطلب الرزق من باب آخر. والداء الثاني اتّخاذ الأدب شِباكًا لصيد الذهب. وهذه آفة الأدب في الشرق. ولسنا ممّن يُحرّمون الغنى على طلاّب الأدب، ولكنّا ممّن يُحرّمون، في الأدب، جعل المال في المرتبة الأولى، والعلم والأدب في المرتبة الثانية، لأنّ صناعة الأدب ليست بصناعة تجاريّة، ومَن يريد معاملتها معاملة التجارة فهو غير أهلٍ لأن يكون منها. وسبب ذلك أنّ موضوعَ الأدب خدمةُ الجمهور كما تقدّم. وهذه الخدمة تقتضي أن تعطي الجمهور من قوّتك، ومن نفسك، أقصى ما يمكنك إعطاؤه. فالكاتب الذي لا يطلب صناعةً لذاتها بل لأجرتها، يكتفي في أكثر الأحيان بملء الورق بما يكون قريب المنال، إذ غرضه ربح المال لا إبراز أرقى ما يمكنه إبرازه من قوى نفسه. وبذلك يصبح الجمهور مغبونًا، والأدب مظلومًا، لأنّه ينحطّ بهذه الطريقة ولا يمكن أن يترقّى معها. وحينئذ يتساءل الناس لماذا

لا تؤثِّر الأقلام في النفوس. مع أنّ السبب معروف محسوس. وإنْ قيل إنّ التبعة في هذه الحالة واقعة على الجمهور، لأنّه لا ينشِّط أهل العلم والأدب التنشيط الواجب ليسدّ حاجاتهم، ويجعلهم يطلبون صناعتها لذاتها. فالجواب أنّ على الجمهور تَبِعَةً عظيمة في هذا الأمر، ولكنّ هذا لا يُخفّف التَّبِعَةَ التي على الكاتب. إذ متى وُجد كتّاب يطلبون العلم والأدب لذاتهما، فإنّه يكون عندهما الفقر والغنى سيّين في هذه الصناعة. لأنّ الغنى الذي في النفوس لا تنقص قيمته عن الغنى الذي في الخزائن إنْ لم نقل إنّه أفضل منه.

الحاجة الرابعة: وأمّا الحاجة الرابعة فهي مختصّة بقلم الكاتب، ونريد بها تضلّعه من المواضيع التي يكتب فيها.
وهذه الحاجة تُقسَم عندنا إلى قسمين: "المادّة ولباسها"، أي الأفكار والألفاظ التي يعبّر بها عنها، والأسلوب الذي يجري هذا التعبير به.

أمّا المادّة فهي تكاد تكون موجودة في كلّ يد... فإنّ كلّ كاتب يكفيه، لخوض أبواب السياسة والتاريخ والعلم الأدبيّ والعلم الطبيعيّ والفلسفة، أن يفتح أيّ جريدة أوروبيّة، أو أيّ كتاب أوروبيّ... وهذا من فضل اللغات الأجنبيّة التي تسهِّل للكتّاب طريق هذه العلوم التي تَعِبَ المؤلِّفون عشراتِ سنين في سبيل تحصيلها. ولكنّ الحقّ يُقال ليس الذنب في ذلك للشرقيّين، بل للناموس الطبيعيّ، فإنّنا الآن في عصر يسمّيه علماء العمران "عصر القرود"، يريدون به عصر التشبُّه بالغير والتقليد. وإذا ساعدتِ الأحوال المعارفَ الشرقيّة فإنّها ستنتقل، إنْ شاء اللّه، من طور "الاتّباع" إلى طور "الابتداع"، وحينئذ ينبغ في الشرق المبتكِرون والمخترِعون. ولا نعود نرى المعارف الشرقيّة عبارة عن نسخة من المعارف الأوروبيّة، وصدى لمجلاّتها وجرائدها العلميّة والسياسيّة. بل يكون الباحث في الكيمياء مُعتمِدًا في بحثه على معمله لا على مجلّته، والباحث في التاريخ معتمِدًا على سياحاته لدرس الآثار في أماكنها الأصليّة، لا على الكتب والأوراق، وهلمّ جرًّا. وربّما وصل الشرق إلى هذا الزيّ بعد قرن أو نصف قرن إذا ساعدته الأحوال، وكَثُرَ قرّاء اللغة العربيّة فيه كثرةً تمكّن أحد الكتّاب من التفرّغ لكتابة كتاب واحد في عامين أو ثلاثة. أي أنّ الكاتب يستفيد من كتابه هذا بعد كتابته ونشره فائدة ماليّة تكافئ أتعابه ونفقاته.

وبما أنّ "المادّة" صارت اليوم موجودة في كلّ يد، كما تقدَّم، فقد صار الفضل والصعوبة في الأسلوب الذي تبرز به. ورُبَّ مادّةٍ يُعطاها كاتبان، فيصنع أحدهما منها فصلًا ترقص له عجائز وائل، ويصنع الآخر منها فصلًا لا يقرأه أحد. وهنا مذهبان مختلفان يتنازعان الكتّاب في كلّ أمّة تقريبًا. المذهب الأوّل مذهب الذين يعتمدون على قواعد السَّفلَ، وأصولِهم في الكتابة والتأليف، فلا يخرجون عنها قيد إصبع. والمذهب الثاني مذهب الذين يحكِّمون عقولهم وأفهامهم في جميع شؤونهم، ويكرهون التقليد إذا لم يكن في محلّه، ويرومون أن يكتبوا كما يشعرون. وعندنا لهذين الفريقين كلمة تدلّ عليهما أحسن دلالة. وهي "أنّ الفريق الأوّل يهتمّ بالألفاظ قبل اهتمامه بالمعاني. والفريق الثاني يهتمّ بالمعاني قبل اهتمامه بالألفاظ".

ومهما صرخ أنصار المذهب الأوّل فإنّ مذهبهم آخذ في الانقراض. لأنّ تلك الأسجاع الضخمة، والألفاظ المنتفخة كأنّها الهرّ يحكي الأسد "قد نبتت في المِعَدِ، وصارت في كلّ يدٍ" كما قال الهمذاني رحمه اللّه. وإذا قابلتَ بين أسلوب الكتابة العربيّة منذ ثلاثين سنة، وبين أسلوبها اليوم، رأيت الفرق بين الأسلوبَين. وإنْ قيل إنّه قد بقيَ إلى اليوم شيء من تلك الأسجاع والألفاظ المترادفة، والتعابير الخطابيّة التي تسرد منها سطرين أو ثلاثة ولا يكون تحتها إلاّ فكر واحد—كأنّها صبيّرة طمشن— نقول ما ذلك إلّا لأنّ لهذا الأسلوب أصلًا مكينًا في نفس اللغة العربيّة، وهذا الأصل لا يموت وينقرض تمامًا إلّا بانقراض طلّابه. ولكنّه الآن يموت شيئًا فشيئًا، ولا أمل

بإحيائه إلّا بطريقة واحدة. وهذه الطريقة يرضى بها حتّى أهل المذهب الثاني. وهي أن يعود مؤسّسو ذلك الأصل من قبورهم الأبديّة، ويكتبوا لنا مثل كتاباتهم الماضية. فحينئذ نقبل منهم ذلك بكلّ سرور ورضى، لأنّ كتابتهم أرقى ما يتصوّر الإنسان كتابته في هذا النوع. وكيف إذا قام الهمذاني من قبره، وكتب شيئًا من رسائله يمكننا أن نقول له: اترك هذا فقد ذهب وقته. وكيف إذا قام ابن المقفّع بلغته السهلة البليغة المفهومة لتعرّب عن الهنديّة كتابًا آخر ككليلة ودمنة يمكننا أن نقول له عرّبه بلغة الكتابة العصريّة لا بلغتك. كلّا. إنّنا لا نقول لهما ذلك. وإنّما نقوله، بلا تردّد، للذين يحاولون تقليدهما في هذا العصر، ولا يكون لهما مقدرتهما. وقد قيل: بين المقلِّد والمقلَّد ما بين التكحُّل والكحَل. وإنْ قيل إنّ الأموات لا يعودون، بل بنبغ من الأحياء من يقوم مقامهم، ويبلغ منزلتهم. فالجواب أين الذي يضمن لنفسه نفسًا كنفوسهم، ثمّ يصرف قواها كلّها عشرين سنة، أو أربعين، في درس كتب اللغة والأدب ليبلغ منزلتهم فيها. ثمّ إذا كان مثل هذا الانقطاع ممكنًا في الشرق أَلا يكون من الجناية على الشرق جعله للغة والألفاظ، بدل جعله للعلم الحقيقيّ الذي يرقّي الأمم، وينقلها من حال الى حال.

فالأفكار الأفكار. المعاني المعاني. هذا هو الغرض الحقيقيّ من الكتابة. لأنّ الألفاظ ليست سوى لباس أو قشور للمعاني— بقي الأسلوب الذي هو صلة بين الألفاظ وبين المعاني، لأنّه قالبها الذي تُسبَك به. وفي ذلك نقول:

قال بعضهم: بأنّ إنشاء الإنسان لهو الإنسان نفسه. يعني بذلك أنّ كتابته تدّل عليه، لأنّها صادرة عن نفسه. وعلى ذلك يكون أسلوب الإنسان في الكتابة على نوعين: اكتسابيّ وغريزيّ. فالأسلوب الاكتسابيّ ما حصَّله الإنسان بكدّ الخاطر، وتهذيب النفس، ومعرفة الأصول، ومطالعة أشهر المؤلِّفين. والأسلوب الغريزيّ ما يكون مغروسًا في فطرة النفس، هذا لا يُشرى ولا يُباع، ولا يُحصَّل لأنّه ملازم للنفس. وقد قال بوفوُن وغيره إنّ قرائح النوابغ تنشأ عن الصبر والكدّ والمزاولة. وهو قول صحيح من بعض الوجوه، خصوصًا في العلوم الطبيعيّة التي تقتضي من علمائها، والمخترعين فيها، الكدّ والصبر والجلد الشديد. وهذا نيوتن وباستور خير مثال على ذلك. ولكنّ العلوم الأدبيّة والفلسفيّة تختلف عن العلوم الطبيعيّة. وبما أنّ العمدة في تلك العلوم (الأدبيّة والفلسفيّة) على التأثير في النفوس، فالواجب أن يكون أسلوبها اللطيف أوّل أسلحتها. وماذا كان عمل روسّو، وبرناردين دي سان بيير، ورسكن، ورنان، وغيرهم، لو لم تكن فطرتهم مسلّحة بذلك السلاح اللطيف الذي كان يهزّ النفوس كما تهزّ الزوابعُ باسقَ الأشجار. فعلينا في الشرق أن نذكر أنّنا محرومون تلك اللذّة الحقيقيّة التي تتناجي بها نفوس القرّاء والكاتب لاستطاعته تحريكها من أعماقها. ولا نلقينَّ التَّبِعَةَ في ذلك على القرّاء، بل على الكتّاب، وإنْ كان لهم بعض الأعذار. لأنّ أشجار الحدائق إذا بقيت ساكنة ولم تتحرّك، فالذنب للريح لأنّها لم تهبّ لتحرّكها.

ولكنّنا نرى أنّ هذه الريح محالٌ أن تهبّ لتحريك الأشجار إذا لم تُطْلَق اللغة العربيّة من أسر الاهتمام بالألفاظ، والسجع، والمترادفات، وتحدّي المتقدّمين، ويُقَّدم عليها الاهتمام بالمعاني المقصود إبلاغها إلى فهم القارىء. ذلك لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعبِّر عن العواطف المختلفة التي تختلج في نفسه إذا كان يتعوَّد صرف قواه، حين الكتابة، إلى الألفاظ، لا إلى تلك المعاني. أَلا ترى الكاتب إذا تكلّم بلغته العاميّة اندفع اندفاع السيل، وأبرز بكلّ سهولة صورًا جميلة من المعاني كانت تجول في نفسه. ولكنْ أطلبْ منه أن يُبْرِزَ تلك الصور الجميلة باللغة الفصحى، مَلْتُوتَةً بالمترادفات الزائدة، والأسجاع الفارغة، فإنّه يقيم يومًا كاملًا لكتابة ما عبّر عنه في ساعة واحدة بلغته التي يتكلّم فيها. وما يكتبه يجيء باردًا. ولا تَقُلْ إنّ سبب ذلك كونه لم يتعوّد الكتابة بلغة الهمذاني والحريري. كلّا. ما من سبب لذلك سوى أنّه، مع اللغة العاميّة، يفكّر بالمعاني فقط، ومع لغة السجع والمترادفات يفكّر بالألفاظ. ولكن أخبرونا ما هو الكاتب.

الكاتب كالشاعر هو الذي يشعر بالمعاني شعورًا أشدّ من شعور سواه، ويبرزها إلى القرّاء بأسلوب جميل لطيف سهل مفهوم لإبلاغها إليهم. ويتفاضل الكتَّاب كما يتفاضل الشعراء، أي أنّ أفضلهم أشدّهم شعورًا، وألطفهم إحساسًا. ولذلك قالوا إنّ الكتابة صناعة من صناعات النفس. وما الكتَّاب العِظام، الذين أقاموا بني عصرهم وأقعدوهم بما كانوا ينشرونه بينهم، سوى نفوس أدقّ شعورًا من باقي النفوس. كانوا يجمعون العواطف التي تختلج في صدور بني عصرهم بوجه مُبْهَم غامض، ويبسطونها واضحة جليّة يتناولها القريب والبعيد، لأنّهم كانوا أشدّ شعورًا بها. فتأمَّلوا في هذه الوظيفة التي هي وظيفة الكتَّاب الحقيقيّة، وقابلوها بوظيفتهم متى كان عملهم مقصورًا على طلب الألفاظ الغريبة من قواميس اللغة، واقتناص التعابير البدويّة، والأساليب القديمة، التي لم يبقَ ما يسوّغ استعمالها في عصر كهذا العصر. لا ريب عندنا أنّ هذا بمثابة ردم معادن المعاني في نفوس الكُتّاب، وجعل أذهانهم عبارة عن مخازن للألفاظ فقط. وبذلك يُقضى على الكاتب العربيّ أنْ تبقى كتابته بلا تأثير في قرّائه مهما أبدع وأجاد في تنسيق التعابير والألفاظ، لأنّ الألفاظ عبارة عن جماد لا يؤثّر في النفس، إذ النفس لا يؤثّر فيها إلاّ فيض المعاني الخارج من نبعها العذب. ولا تنسَ أنّنا قلنا، في مقدّمة الكلام، إنّ وظيفة الكاتب الكتابة للأمّة لا لنفسه، ولا لطبقة واحدة من طبقات الأمّة، وإنّ حُسْنَ التأثير شرطُها الأوّل، والفائدةَ العموميّة أساسُها الحقيقيّ.

فرح أنطوان،

"الكاتب الشرقيّ وحاجاته الجديدة"، في مجلّة الجامعة، السنة الرابعة، ١٩٠٣، الجزء ٤، الإسكندريّة، حزيران ١٩٠٣، ص ٢٣٠– ٢٣٧.

###

الخُطبَة لدى شَلّال نيَاغِرا[١]

سلامٌ أيّها الشلّال. حدِّثني لأحدثّك. فقد جئتُك من مكان بعيد. لقد جئتُك من البلاد الشرقيّة البعيدة التي سمعَتْ بكَ، وأنت لم تسمع بها. ولقد قرأتُ عنك فيها في صباي ما أدهشني، فلمّا وطئت قدماي بلادك العظيمة هذه كانت زيارتك إحدى أماني نفسي. ولمّا بلغتُ مساء أمس بلدتك المسمّاة باسمك، وسمعت في الفندق صوتك يملأ الفضاء، لم أستطع الرقاد مع أنّ الليل كان في منتصفه. وكان صوتك، مع كونه شبيهًا بصوت أمّ يُهَمِّم في أذنَيْ طفلها لتنوِّمه، يهيج أعصابي في فراشي، ويمنعها من السبات بدل أن يسكِّنها، وخيّل لي مرارًا أنّه يدعوني إليك، وأنْ لا أؤجّل زيارتك ومصافحتك إلى الغد. فنهضتُ إلى ملابسي فلبستُها، وانحدرتُ في ظلام الليل إلى الحديقة التي على شاطئك بين حِبال الأنوار الكهربائيّة، التي زيّنوا بها الطريق إليك زينة تتجدّد كلّ يوم بجمالٍ وسلامةِ ذوق، كأنّهم يحتفلون بك احتفالًا أبديًّا. ولما صرتُ على شاطئك في الحديقة، بين أصوات قبلات العشّاق في الخمائل، ولفتات بنات أميركا ليرينَ

[١] يقول فرح أنطون إنّه، في وضعه هذه الخطبة، تحدّى "خطبة رنان لدى الأكروبول". وخطبة رنان هذه ترجمها فرح إلى العربيّة، ونشرها في الجزء العاشر من الجامعة، السنة السادسة، نيويورك، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٨، ص ٢٦٦– ٢٧٢. ويُراجَع بهذا الشأن، تحديدًا، التمهيد الذي صدّر به ترجمته على الصفحتين ٢٦٥– ٢٦٦ من جزء الجامعة ذاته، والسنة ذاتها.

هل يرى أحد تلك القبلات المسروقة من وجناتهنَّ، هبطتُ إلى مائك بسرور ولذّة لا مزيد عليهما، كأنّني هابط إلى ماء أعظم من ماء الأردنّ، وغمست فيك كَفّيّ أصافحك قائلًا: سلامٌ يا صاحب الماء.

أَي نعم سلامٌ وألفُ سلامٍ. لقد جئتُ أسألُكَ سرَّك العظيم. أنا تعبْتُ ولم أتجاوز ثلث قرن، وأنت لم تتعبْ وقد تجاوزتَ مئات قرون، فما السّر في ذلك أيها الشلال؟.

ولم يكن تعبي من الحياة وحياتِك. فقد كنتُ تَعِبًا منها من قبل، حين كنتُ في زمن الشباب، أعني شباب الروح لا شباب الإهاب. أمّا الآن وقد بدأتُ أفهمها، عفوًا ولا تبتسم إنْ كنتَ تستطيع الابتسام، فقد أصبحتُ أحبّها كحبّ الإنسان لشيء لا مفرّ له منه، فإنْ حضر تمتّع به، وإنْ غاب لم يسألْ عنه، وإنّما تعبتُ لأنني أركض وراء شيء وهو يركض أمامي.

فلعلّ هذا سبب تعبي بعد ثلث قرن، وعدم تعبك أنت مع أنّك ابن مئات قرون.

أنت لا تركض وراء شيء ولا تطمع في شيء. مياهك تجري من حيث لا تدري، إلى حيث لا تدري، مندفعة بقوّة الصواعق وأصوات الرعود، وهي لا تبالي بمصيرها، ولا بما يصيبها أو تصيبه في طريقها. ولا غرض لك ولا غاية. وأمّا أنا فمع أنّ لا غرض لي، ولا غاية، أريد بالرغم من الطبيعة، أمِّنا جميعًا، إيجاد غرض لي وغاية، وهذا هو التعب العظيم. فهل أنا طالبُ مستحيلٍ؟ أم غايتي لا تُدْرَك إلّا بعد عناء طويل؟.

صعدتُ الجبال أطلبها، وهبطتُ الأودية أخطبها، واستوقفتُ في الأحراج نسيم المساء أسأله عنها، وناجيتُ أجرام السماء وسكّان المدن والقرى أستخبرُهم خبرَها، فوجدتهم جميعًا لا يعلمون، والآلهة الذين يعلمون ذهبوا فلا يعودون.

أنت عاصرْتَهم منذ ألوف من السنين، فأَخْبِرْني هل أسرُّوا إليك خبرًا، وهل تعلم شيئًا ممّا سيجري وممّا جرى؟.

لمّا كان كهنةُ المصريّين يحيطون هياكلهم بالأسرار ويسجدون فيها للأبقار. وموسى يقود شعبه في التيه. وإسكندر يفتح المشرق والمغرب. ويسوع يحمل على مبادىء الكهنة المادّيّة حملته المشهورة التي كَوَتْهُمْ في جباههم بنارٍ أبديّة. ومحمّد يدعو إلى السيف أو القرآن. وبوذه وكونفوشيوس وَبُرْهُما يجتذبون إليهم أكثر من ثلثي بني الإنسان. ونابوليون يقتحم أوروبّا التي اتّحَدَتْ عليه ليدوسَها بسنابك خيله. والعلم والفلسفة بين كونت [Comte] وقنت [Kant] وسبينوزا وشوبنهور وهجل وسبنسر ونيتش وروسُّو وديكارت وفولتير وباكون ودروين– يضّطربان. ورنان يبتسم لأقوال الجميع ويقول بلغته البديعة: "لكلّ مسألة وجهان"– لمّا كان كلّ ذلك، أيّها الشلال، كنتَ تجري كما تجري الآن، ومعاصِرًا لهؤلاء الأعاظم من بني الإنسان. فقُلْ لي هل بَلَغَكَ أنّ أحدهم وجد تلك الغاية المنشودة، واليتيمة المفقودة؟ وهل أسرَّ أحد منهم إليك شيئًا من تلك الأسرار الهائلة التي لا يبوح بها الإنسان لأحد غير نفسه؟ حدّثني لأحدّثَكَ يا جدّ الأرض وشيخّها الأعظم، وقلْ لي ما علمْتَ لأقول لك ما أعلم.

ولكن مهلًا ولا تُصْغِ إليَّ، فليس ما أعلم بذي شأن، وتكلَّم أنت أوّلًا، فللجبابرة حقّ التقدّم على الأقزام. أفٍ ما أحقر الإنسان، وأصغره لديك، وما أقبحه لدى جمالك! لقد جلسْتُ بجانبك ساعةً أنظر إلى نفسي، وإلى مياهك الفضّيّة، فهممْتُ أن ألقي بنفسي

فيك لأكون جزءًا منك. لاصقًا بك إلى الأبد لا أنفصل عنك. ولكن أنّى لي ذلك؟ تكلّم أوّلًا يا شيخنا الناطق الصامت. فما لديّ شيء تافه ساقط.

وماذا عسى أن يقول لك ابن ثلث قرن يا ابن مئات قرون؟ وماذا تستفيد من مُعاصِر الصغار يا مُعاصِر الكبار؟ إسمعْ أيّها الشيخ. أتعطيني كلَّ ما في صخورك من الجماد الذي لا يحسّ، وتصوغ لي منه أَجْمَدَ نفسٍ؟ وإذا تمكَّنْتَ من ذلك قلتُ لك قولًا هائلًا يستحّق أن يُصغى إليه، وإلّا فلا تَسَلْنِي إلّا ما أقدر عليه.

ليس هذا بجبنٍ أيّها الشيخ الشجاع، ولكنّه كراهة للألم، وخوف من الانفصال عن العالم. إنّك أنت تقدر أن تعيش في فراشك الرحب الجميل وحيدًا فريدًا كإلهٍ جليل. وما فتئَتِ الآلهة تعيش وحدها. ولكنّ بني الإنسان اجتماعيّون طبعًا وتطبُّعًا. ثمّ هل أنت تقدر على الخروج من مجراك وارتقاءِ الآكام التي حولك؟ فكيف يقدر رجل مثلي على الخروج عن طريقه المألوفة لصعود جبل أصعب وأشدّ خطرًا من آكامك؟

أتذكر ايّها الشلال يوم كان شاطئاك مرتعًا لاولئك الهنود المساكين قبل أن يصل إليك البيض، ويغتصبوا أرضهم هذه ظلمًا وعدوانًا؟ لا ريب في أنّك تذكره لأنّك كنتَ فيه معبودهم. فأولئك البشر السذَّج المساكين، الذين كانوا يصطادون التمساح من مياهك وهم عراة الأبدان يكسو الريش رؤوسهم، وتحمل أيديهم الفؤوس والحراب، ويعيشون بالغزو والسطو في قفرٍ يَباب، كانوا أسعد حالًا وأنعم بالًا من هؤلاء البيض الوافدين على شاطئيك من جميع أقطار الدنيا، وقد ملأوهما بالمدن العامرة، والمنازل الفاخرة، والحدائق الزاهرة، والمركبات الكهربائيّة، والسفن البخاريّة، وراحوا يتبخترون بينها تبختر الطاووس بثياب جميلة، وشعور صقيلة. وصدّقني أيّها الشيخ: إنّ أولئك كانوا أسلم طبعًا، وأبعد عن الخبث من هؤلاء.

قد غيّروا أرضك ومَنْ عليها أيّها الشيخ، وهم يظنّون أنّهم حسَّنوها وحسَّنوك، وجمّلوها وجمّلوك. وما جمالهم إلّا كجمال المرأة الدميمة: زخرف خارجيّ، وطلاء سطحيّ. حُكَّ هذا الطلاء قليلًا فتجد تحته جيفة مُنْتِنَة. أظنني غير مخطئ، ولا مُسِيْءٍ إليك أيّها الشيخ، إذا قلتُ لك إنكّ كنتَ أجمل منك اليوم حين كان شاطئاك ملجأ للمتوحّشين، ومعترَكًا للأسود والنمورة، ومسبحًا للذئاب والتماسيح، ومرقصًا للدببة والقِرَدة. فقد كان جمالك يومئذ جمالًا حقيقيًّا. أمّا اليوم فقد أسروك كما تُؤسَر الأسود في الأقفاص، وتُجعل فرجة الناس، فأصبح شاطئاك مرتعًا لذئاب ونمورة ودِبَبة وقِرَدة من جنس جديد، لها طابع تلك ولكنّها تمشي على قائمتَين لا على أربع. إنّ روحًا ماديّة هائلة هبَّت على العالمين، فضعضعت المبادىء، وزعزعت الشرائع، وسحقت الأديان والآداب، وساقت الناس بعصا الحاجة الحديديّة إلى مبادىء هائلة جعلتهم ذئابًا هائلة. فإنّ الأمم الآن تتعادى وتتسلّح تأهبًا لاقتتال أفظع من اقتتال الذئاب، والشعوب يأكل في داخلها كبيرُها صغيرَها، وقويُّها ضعيفَها، كما تفعل أسماكُك. فركفلر يملك من المال ألف مليون، بينما ملايين من البشر يستعطون الخبز الآن ولا يجدون. وهو يستخدمهم بأجور تافهة لزيادة ثروته الملطَّخة بدمائهم وعرقهم، وهم يسكتون ويعملون لأنّهم مضطرّون. والسلطة في الأرض ضعفتْ وكادت تنحلّ. فإنّ الناسَ أسقطوا العروش والملوك، ولكنّهم أقاموا مكانها ملوكًا لكّل واحد منهم ملايين من الرؤوس[٢]، فقويَتْ بذلك سلطة المشعوذين والدجّالين، والجهلاء الناصحين، الذين يتملّقون الشعوب ويُضِلّونهم كما كان أخصّاء الملوك يتملّقونهم ويُضِلّونهم. والأفراد يتخاصمون ويتعادون، ويفترسون بعضهم بعضًا بأيديهم وألسنتهم وأقلامهم، تنازعًا

٢ سلطة الشعب [الحاشية بقلم المؤلِّف].

على الرزق والسيادة، وقُبِّحَ هذا الرزق وهذه السيادة إذا كان لا يُبلَغ إليهما إلّا بالرجوع إلى وحشيّةٍ وهمجيّةٍ أشدّ من الوحشيّة والهمجيّة الأولى. فإذا كان كلّ هذا هكذا، أيّها الشلال، فأين الارتقاء الذي يزعمونه؟ وما فائدتك في استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التي لها طباع تلك؟ وما هذا القبح الذي يدعونه جمالًا؟ من أجل هذا صرخ حكيم مشهور[٣] قائلًا: يا وحوش البَرّ وأفاعي الغابات، خذيني إليك آكُلُ من طعامك، وأشرب من مائك، فإنّ صُحبتك أهون على الإنسان من صحبة الإنسان.

كلّ متحمّس لمبدإٍ، أو فكر، أو فضيلة، أو فضل، يُعَدُّ الآن بين تلك الذئاب الجديدة ساذجًا مخدوعًا، لأنّنا أصبحنا ولا فضل غير الفضّة، ولا مذهب غير الذهب، ولا كمال غير الريال. ويا لَلأمر المدهش. فإنّ المتحمّسين القادرين المخلصين للمبدإ والفكر يضطرّون إلى كتمان حماستهم وفكرهم وإخلاصهم لئلّا يُرْمَوا بتلك التهمة، وطلّاب المنفعة المادّيّة الجهلاء، العاجزون المراؤون، ينادون على السطوح بالمبدإ والفكر والإخلاص، ويمدّونها كشركٍ للاقتناص. البُومُ يصرخ، أيّها الشيخ، والبلبل يسكت، والناس لا يفرّقون بين صوت البلبل وصوت البُوم. بل مبادىء الناس الواطئة أكثر موافقة لصوت البُوم منها لصوت البلبل. الناس لاهون بمعدتهم وخزائنهم وأنانيّتهم، فلا تحدّثهم عن شيء آخر. لا تَذكرْ لهم الحياة العالية العقليّة والأدبيّة، ولا تَستنزِلْ لهم مِن الملإ الأعلى همسَ الآلهة والملائكة، ولا تُترجِمْ لهم أصوات الطبيعة وعواطف النفس الجميلة، فإنّ كلّ هذه لا تهمّهم ولا تحرّك أوتار قلوبهم، لأنّها أصبحت لا تتحرّك إلّا عن طريق المعدة والخزانة والأنانيّة. إنّ الشراهة والجهالة والكبرياء قد اتّحدت عليهم، وطوّقت نفوسهم بأسلاك من فولاذ لتربطها بتراب الأرض منعًا لها من الارتفاع إلى الآفاق العليا التي تعيش فيها النفوس العليا. فاخبرني، أيّها الشيخ الخبير، مَنْ مِنَ الفريقين هم الضالّون المخدوعون؟ ومَن يكون المنتصرون الفائزون؟ أَفِدْني لأستفيدَ وأفيد، وأمزّق ذلك القناع بيد من حديد.

إنّي، أيّها الشيخ، من أمّة صغيرة، هجر كثيرون منها بلادهم إلى بلادك طلبًا للرزق والارتقاء. وقد بدأ كثيرٌ من تلك المبادىء الهائلة يتسرّب إليهم في بلادهم قبل هجرتهم إلى بلادك، وزاد تسرّبها إليهم بعد هجرتهم زيادة هائلة. فقد كانوا يعيشون، منذ خمسين سنة، مع سائر الأمم الشرقيّة بسذاجة ودَعَة وتضامن وطمأنينة، واحترام للنظام الاجتماعيّ بين الناس، كما يعيش الطفل في سرير أمّه. ولمّا دخلَتْ إليهم مبادىء قومك وبلادك تغيّرتْ حالُهم ونفوسُهم، كما تغيّرتْ أحوالُ جميع الأمم الشقيّة ونفوسُها، بعد دخول مبادىء قومك إليها. فأَفِدْنيْ أيّها الشيخ، ما سألتُكَ إيّاه لأبلِّغه إليهم، فنعلم جميعًا هل نحن على هدًى أم ضلال، وما هو الغثّ والسمين في تلك المبادىء، وَثِقْ أنّي لا أخشى في هذا البلاغ لومةَ لائم، وإنْ كان ممّا تضّطرب له الشيوخ في القبور، والأطفال في التمائم، ولا تخشَ التثقيل عليّ أيّها الشيخ، فإنّ حِرفتي البلاغ ووظيفتي النشر، ومِنْ سوء طالعي أنّي اتّخذتُ هذه الحرفةَ سبيلًا لي في الحياة في بلادنا ولغتنا.

عفوًا أيّها الشيخ، ولا تَلُمْني لقولي "من سوء الطالع"، فإنّي ما أردتُ ما ظننتَ. إنّ طيور السماء تكتفي بقطرة ندى، وحبّة قمح، ونحن، طيور الخيال، نكتفي بما تكتفي به طيور السماء. وهذه الطيور تعيش بسلامة، جسمًا وروحًا، في أصغر بقعة جدباء كما تعيش في الرياض الفيحاء، وتغرّد بأنغام سماويّة في تلك كما تغرّد في هذه، فما أردتُ بكلامي الكسب المادّيّ، أيّها الشيخ، وإنّما أردْتُ الكسب الأدبيّ. إنّ صناعتنا شقيّة في بلادنا ولغتنا، ومن طَلَبَها لذاتها حُرِم لذّاتها وجميع اللذّات، فهو يضطّر في سبيلها إلى مسالمة الفساد، والإغضاء عن أهل الأوهام والاستبعاد، ومعاداة الأصدقاء ومصادقة الأعداء، والخلط بين الكرام والغوغاء، وتسمية الانحطاط

٣ لابرويير [جان دو (١٦٤٥- ١٦٩٦) Jean De La Bruyère] في كتابه "الأخلاق" ["الطبائع" Les Caractères]. (الحاشية بقلم المؤلّف).

ارتقاء، ورؤية الجهل سائدًا والسكوت عنه، والحقّ ضائعًا والابتعاد منه، وإذا جاشَتْ في النفس تلك النار التي تُوْقِدِها الآلهة في بعض النفوس، وأضرمَتِ الغضب المقدّس في الصدور والرؤوس، وحرّكَتِ اليدَ لاستنزال صواعق الفكر على الطروس، سَكَّنَ العقلُ الجافُّ الباردُ تلك الصواعق قبل وقوعها بالابتسام وعدم المبالاة، وقال للنفس الغضبى: إيّاك والسذاجة والغرور، وأَنْشَدَها ذلك القول المشهور: "مكانك تُحمدي أو تستريحي" فتصبح النفس وفيها ما في مياهك، بعضها في المرتفَع ثائر هائل كثورة شلّالاتك، غالٍ غليان أمواجك، يطلب السدود والحواجز والعقبات لكنسها بقوّته كنسًا، فلا تجترىء الجبابرة، ولا الآلهة، على الدنّو منه؛ وبعضها في السفح على الشاطىء هاديءٌ ساكنٌ كأنّه ماء في بركة تلعب بجانبه الأطفال، وهو غير مبالٍ. وبين ذاك الهياج، وهذا السكون، قوّة الآلهة، أيّها الشيخ، وآلام المنون.

أنت قوّي، وتستطيع الثبات على هذا السكون والهياج معًا، وإنّما مزيتك العظمى، وقوّتك الكبرى، ثباتك هذا، فثبّتنا في ثباتٍ كثباتك. إنّك، أيّها الشيخ، لو انقطعتَ عن الجريان منذ عام أو مئة أو ألف، لكان نياغرا الآن في خبر كان، ولضحكَ منكَ الأمازون، والمسيسبي، بل النيل والدجلة، ضحكًا ملأ السهول والأودية. فيا لَهذا الثبات العجيب مدّة ألوف من السنين! كلّ شيء في الحياة حولنا، نحن معاشر البشر، يتغيّر ويتغيّر: أصدقاؤنا يخونون، وأحبابنا يسلون، وأجدادنا وآباؤنا وابناؤنا يذهبون، وأعداؤنا يعادوننا بسبب وبلا سبب ولا يعودون، وأمم تنقرض وأمم تقوم، والأسافل يَسْتَعْلون، والأعالي يسفلون، والسلاطين على العروش يرتعدون، وكلّ شيء في الأرض يتزعزع ويتضعضع حينًا بعد حين، حتّى المبادىء التي خلناها أزليّة أبديّة، بل حتّى الأرض نمشي عليها يوم تُزلزلُ زلزالها وتُخْرِجُ أثقالها. نعم، كلّ شيء يتغيّر إلّاك. فبارَكَ الله في عظمة ثباتك، وحيّاك وبيَّاك!

يا روح نَياغِرا وإلاهة مياهه: بعيني قد أبصرْتُكِ، وبعد هذا اليوم أصبحتُ أعتقدُ أنّ لكِ نفسًا كنفسي، ولستُ أعني بهذا مسألة الخلود، فأنتِ خالدة كما دلّ على ذلك تاريخُك، وقد استدللْتُ عليكِ حين صافحتُ ماءَكِ بغمس يدي فيه، وتجلّى لي بين رشاشه المتطاير كالغبار أمامي قوسُ قزح بديع. يا لذّة الحياة العقليّة الكبرى حين رأيتُ قوسَ قزحك هذا كأنّ نفسك تنتصب ضمنه للترحيب برجل جاءك تَعِبًا مَلولًا، متألّمَ الضمير، ولا يعزيّه في الدنيا لذّة أو جمال غير جمالك وجمال أمثالك. إنّي بعد أن رأيتُ هذا القوس، وسمعتُ على الأثر هديرك الهائل كأنّه طبولٌ بعيدة تضرب، ووقع في أذني تغريد العصافير في أشجارك، ورأيتُ الأزهار تتمايل على شاطئيك، وحولها الفَراش يطير ويقع، وماؤك بينها كلّها مسرعٌ تحت الجسر إلى حيث لا أعلم ولا هو يعلم- خُيِّل لي برهة لغروري ودهشتي أنّ روحك حيّة حاضرة في هذا الاحتفال الطبيعيّ العظيم وقد أقامتْه استقبالًا لي، وردًّا لتحيّتي، واستعدادًا لإجابة طِلْبَتي. ولكنّني لمّا رأيتُ في أشجارك السنجاب يصيح وهو ساكن على الغصن ينظر إليّ وصوته شبيه بصوت الضاحك ضحكًا مستترًا، والغراب على الشجر البعيد ينعب نعيبًا شبيهًا بأنين الثَكلى وبكاء الباكي جهرًا، وقفتُ حائرًا أمامك استنطقهما واستنطقك، إذ خُيّل لي أنّ ذلك الضحك والبكاء إنّما هما ضحكٌ من حَجّي إليك أطلبُ سرًّا وغاية حيث لا سرَّ ولا غاية، وبكاء على آمال الصِّبا الذهبيّة والأماني السماويّة التي خلتها أبديّة، وإذا بها كالسراب: جميل في العين، ولكن لا أثر له ولا عَيْن. وبين الأمل في روحك المتجلّية في قوس قزحك، واليأس لضحك سنجابك وبكاء غرابك، أطرقتُ على الجسر أمامك ولبثتُ صامتًا، ولم يبقَ حينئذٍ في نفسي لذّة ولا ألم. ولا يأس ولا أمل. إذ هي كادت تصبح جمادًا كجمادك.

أي نعم أيّها الشيخ الذي ما عضّه ناب الهرم وإن كان قد طال عليه القِدَم، ستبقى على مرور الزمان حَجًّا لبني الإنسان كما كنت حتّى الآن. فسيأتيكَ جمهورهم من بَعْدي كما جاؤوا قبلي ما دامت الأرض أرضًا والسماء سماءً، ومنهم العاشق عشقًا شرعيًّا يتساقى

هو وعروسه في شهر العسل في الفنادق المشرِفة عليك كؤوس سعادة وقتيّة، ومنهم العاشق السارق يجعل ظلال أشجارك على شاطئَيكَ في ظلام الليل مخبأ لسرقاته، ومنهم سيّاح لا صناعة لهم غير السياحة، بل لا صناعة لهم ولا عمل أصلًا، لأنهمّ من أهل الترف والكسل والبطالة، يقصدونك لقتل أوقاتهم، لأنّ غيرهم يتعب ويعمل لهم ولا يفهمون منك غير جريان مياهك، ومنهم جمهور متوسّطي العقول الذين سمعوا بأنّك جميل عظيم فاختلسوا فرصةً من أوقاتهم وساروا إليك مع السائرين، والتهوا بالملاهي الصبيانيّة التافهة عن جلالك وجمالك، ومنهم الحزين أو المنكوب أو التَّعِب من الحياة، أو جريح القلب جرحًا أبديًّا بكارثة من كوارث الدهر الغادر، والزمان القاهر، يجيء إليكَ وهو يجرّ ذيول آلامه التماسًا للقوّة في ظلالك، وطلبًا لتبريد نفسه المتّقدة بشيء من رشاش مائك. ومنهم، وهم المتأخّرون المقدَّمون، جمهور أهل الفكر، يزورونك كزيارة الكاهن الهيكل، ويقفون عندكَ يستنطقون آثارَكَ، ويسألونكَ أخبارَكَ، ويَذكرون ويَتذكَّرون. وأنت يا أيّها الشيخ الجائر تردّ هؤلاء إلى بلادهم جامدين صامتين منقبضين، لأنّك لا تفتح لهم خبايا أسرارك. وأمّا جميع أولئك فتردّهم فَرِحين نشيطين مُعجبين. فلا تحالفِ الزمان على خياره وخيارك.

لقد طفْتُ في ربوعكَ، وحادَثْتُكَ وسألْتُكَ فلم تُجِبْ، وها أنا عائد عنك. فوداعًا أيّها الشيخ. تذكَّر في المستقبل رجلًا جاءك من أقصى الشرق، وأجال في ضفّتَيك مزيجًا غريبًا من روح الشرق والغرب ممزوجًا في نفسه، وأفكارًا قد تستأهل الإهمال وعدم المبالاة، ولكنّها لا تستأهل الضحك والهزء، وإذا هزأتَ بها فاهزأ، فقد هزأتَ قبلها بالدهر وضحكتَ من الزمان. ولكن قبل أن تهزأ تذكَّر أنّها نتيجةُ تأثير قومك، وأجداد قومك. فنحن تلامذتكم في الصغائر، كما نحن تلامذتكم في الكبائر. صدِّقني أيّها الشيخ، غيِّرْ مجراكَ واذهبْ إلى بلادي، فهناك تجري خاملًا مجهولًا، لا يعكّر ماءَكَ ذئاب قديمة أو ذئاب جديدة، ولا يستأسرك الناس ليجعلوك "فرجة" وألعوبة، بل تعيش على هواك معيشة الخمول والسلامة، بعيدًا عن الناس. هناك تسمع حفيفِ أشجار الأرز، وتهبّ عليك ريح الأهرام، وينبت زنبق البَرّ على شاطئَيكَ، وإذا مرّ بك اتّفاقًا بعض الناس مرّوا باحتشام. ولا تَسَلْنِي، أيّها الشيخ، لماذا أتيتُ منها إلى بلادكَ إذا كان هذا حال بلادي، فللتقادير أحكام.

فرح أنطون،

"الخطبة لدى شلّال نَياغِرا" في مجلّة "الجامعة"، السنة السادسة والسابعة، الجزء ٨، السنة السادسة، نيويورك، أيلول ١٩٠٨، ص ٢٠١– ٢١١.

###